

علاقات الألفاظ بالمعاني وأثرها في بناء الخطابات داخل النص الواحد¹.

د. بن جلول مختار جامعة ابن خلدون – تيارت –

ملخص :

النص أكبر بكثير من كونه خطابا، لذلك إذا حاولنا الوصول إلى النص كمفهوم شامل لفعل زمكاني تحرك فيه جملة من العناصر المختلفة، علينا أن نبنيه من جملة من المقاربات اللسانية المتباعدة بمسافات متباينة؛ هذه المقاربات التي احتوتها البحوث اللغوية الحديثة بكل مدارسها وتشعباتها دون الإكتفاء بالتحديدات اللغوية المباشرة، لأنها لا تكشف من النص مستويات الخطاب المتعددة؛ بل تقتصر على مستوى واحد، وهو السطح اللغوي بكيونته الدلالية، وعليه فإنها ستغفل عمق النص الذي لا يتضح إلا من خلال تفعيله خطابيا.

الكلمات المفتاحية : النص – الخطاب – اللفظ – المعنى – الدلالة – التحديدات اللغوية – السطح اللغوي – العمق اللغوي – المقاربات اللسانية.

ملخص اللغة الثانية :

Les relations entre les sons avec les sens et leurs impacts dans la construction des discours dans un texte

La notion du **texte** est bien plus large que celle du **discours**, si nous voulons arriver à une approche globale du texte tout étant un fait spatio-temporel où s'y mêlent des éléments différents, cela doit être abordé à travers les différentes approches adoptées respectivement par un ensemble d'écoles et de courants linguistiques, sans se contenter des règles linguistiques directes qui ne peuvent couvrir les différents niveaux discursifs dans un texte car elles se limitent à un seul niveau qui est la structure de surface au détriment de la structure profonde du texte rendue claire qu'après la mise en œuvre du discours dans des situations (contextes) bien déterminées.

Mots clés : Texte – Discours – Son – Sens – Sémantique – Règles linguistiques – Structure de surface – Structure profonde – Approches linguistiques.

¹ - تاريخ الإيداع: 2016/04/14 تاريخ الموافقة: 2016/04/28

إن رسم الحدود بين النص والخطاب في الدراسات اللغوية الحديثة فتح المجال أمام علماء اللغة لإعادة النظر في كثير من القضايا المتعلقة بعلم اللغة والتي ظلت ردا من الزمن من المسلمين. فالنص أكبر بكثير من كونه خطابا، وعليه فإننا إذا حاولنا الوصول إلى النص كمفهوم فعلى أن نبنيه من جملة من المقاربات المتباعدة بمسافات متباعدة التي احتوتها البحوث اللسانية الحديثة بكل مدارسها وتشعباتها دون الإكتفاء بالتحديدات اللغوية المباشرة، لأنها لا تكشف من النص مستويات الخطاب المتعددة؛ بل تقتصر على مستوى واحد، وهو السطح اللغوي كينونته الدلالية، ومن هنا نجد تعريفات المحدثين للنص توغلت في أعماق النص لتبرز جملة من الشبكات المتعاقبة والتي تظهر بنسب متفاوتة حسب الفضاء الذي يتفاعل فيه طرفا الخطاب (الباث / المتلقي).¹

إن هذا التشابك والتعاقب بين الممارسات السيميولوجية داخل النص تجعله أكبر من كونه ظاهرة لغوية؛ معنى هذا أن الألفاظ المشكلة للنص غير قادرة على أن تلتزم باحتوائها على شحنة معرفية واحدة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى غير قادرة أيضا على أن تجعل من هذه الشحنة المعرفية إسقاطا للتصورات الذهنية التي أفرغها صاحب النص في النص.

اللفظ والمعنى وبنية الخطابات داخل النص.

لقد لعبت جدلية اللفظ والمعنى أدوارا مختلفة تحولت تارة في عملية المفاضلة وتارة أخرى في عملية المكاملة، ويمكن نسبة هذا التباين إلى العملية المتبادلة في تناسل كل طرف من الآخر؛ إذ نجد تلبس المعنى الواحد بالألفاظ المتعددة، وتلبس اللفظ الواحد بالمعاني المتعددة، " فالكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد إلى إصابة المعنى، ولأن المعاني تحمل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتببة إحداها على الأخرى معروفة."²

وقد ترجع هذه الثنائية المتبادلة بين اللفظ والمعنى إلى التباين في التصور الذهني لطبيعة اللغة أصلا؛ إذ أن هذا التصور لم تتشكل أبعاده ذهنيا عند علماء اللغة على الرغم مما جادت به قرائهم من مقاربات على درجة من الأهمية في بنية الدرس اللغوي البلاغي، والمتتبع للتعريفات المتعاقبة زمنيا ومكانيا

¹ ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، عالم المعرفة 164، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1978، ص 211

² كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ت: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1،

للغة يمكنه الوقوف على حقيقة الأسباب التي حالت بيننا وبين تصور مفهوم موحد وشامل للغة؛ وبالتالي إلى العلاقة بين مركباتها (اللفظ والمعنى).

كما أن ربط المعنى بالبحث دون المتلقي في فترة من فترات تشكل نظرية اللغة، لعب دورا هاما في انعاش هذه التشعبات الاستمولوجية في علاقة اللفظ بالمعنى، بينما وحسب الدراسات المتقدمة في هذا المجال فإن المتلقي له دور فعال وبارز في إنشاء المعنى، وهنا نكون أمام نسبية العلاقة بينهما، فالمنتج أو المبدع أو الباحث قد يحول صورته الذهنية إلى صور صوتية وفق منظومة كلامية متأثرة بفضاء - زمكاني - محدود المعالم من جهة، وجملة من التفاعلات بين عناصر المجموعة البشرية داخل الحيز ذاته من جهة ثانية، وكذلك بالنسبة للمتلقي، ولكن مستحيل أن يتطابق تكوينها اللغوي، وعليه فإنه على الرغم من تشابه مدخلاتها فإن المخرجات حتما ستختلف، هذا كله والحديث عن الكلام حقيقة، فما بال الكلام إذا كان مجازا؟ حتما سنكون وجهنا لوجه أمام ما قاله عبد القاهر الجرجاني من أن هذا المعنى الجديد "توصل إليه بعملية من عمليات الاستنتاج".¹

إن كلام الانسان إعادة بناء لما اكتسبه من قبل داخل سياق معين يفرض عليه التفاعل مع الطرف الثاني، فهو لا يعدو أن يكون " أكثر من قارئ في إحدى الدرجات الراقية،" ² وبما أن البيئات طبقات مختلفة، سواء كان الاختلاف عمودي أو أفقي، فإن "كلام الناس في طبقات.... فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقيح والسمج، والخفيف والثقيل؛ وكله عربي، وبكل تكلموا، وبكل قد تماردوا وتعايوا".³

وقد ذكر لكنا محي الدين بن عربي،⁴ قصة طريفة عن الشاعر ابراهيم بن الجهم تحاكي ما ذهب إليه الجاحظ في أن طبقات الناس تولد طبقات في الكلام، وحتى وإن كانت هذه القصة من نسج الخيال على حد تعبير الاستاذ خليل مردم بك محقق ديوان ابراهيم بن الجهم، فإن العبرة منها تكون بإمكانية حدوثها سواء كانت على الطبع أو على الصنعة، يقول: " حكي لنا بعض الأدباء عن ابن الجهم وكان بدويا جافيا لما قدم على المتوكل وأنشده يمدحه بقصيدته التي يقول فيها يخاطب الخليفة:

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخـطوب

¹ كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ت شكري محمد عياد، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1، 1967، ص 252-253

² في علم النص والقراءة، د. عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ط2، 2011، ص 33

³ البيان والتبيين، الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، ج1، ص 144

⁴ ينظر: كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، محي الدين بن عربي، دط، دت، ج2، ص 3

فعرف المتوكل قوته ورقة مقصده وخشونة لفظه، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبهه به لعدم المخالطة وملازمة البداية، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة فيها بستان حسن والجسر قريب منه فاستدعاه الخليفة بعد مدة لينشد فحضر وأنشد:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري.¹

وقد نقل لنا الجاحظ في كتابه البيان والتبيين عن بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني على حد تعبيره ما مفاده أن " المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في قوسهم، والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما يحكي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها."²

ويرى الدكتور محمد زكي العشماوي أن الجاحظ في هذا النص قد " فصل بين اللفظ والمعنى ... حين يجعل للألفاظ جهابذة يعنون بها، وللمعاني نقادا يرجع إليهم فيها، حتى لكأن الفصيحة في الكلام أو الشعر إنما هي قسمة بين اللفظ والمعنى،"³ وهذا طبعاً يتنافى ما هو شائع عن الجاحظ كونه رأس المدرسة اللفظية. لكن ربما الذي غاب عن العشماوي أن الجاحظ لا يرى في الألفاظ مفردة الأفضلية، وإنما عندما تتراص مع بعضها تحدث بريقاً يجعلها محطة عجب، وهذا التراص إنما يستدعيه المعنى ليكون؛ أي المعنى روح وجوهر التشكيل اللفظي المعقد.

والغريب في الأمر أن الدكتور العشماوي ينكر على الجاحظ أن تكون المعاني مستورة في الذات الانسانية قبل أن يعبر عنها، فقد قال " أن النص السابق يقرر حقيقة غاية في الخطورة، بل هي أبعد ما يكون عن حقيقة الخلق الأدبي فقد جعل الجاحظ للمعنى قبل النطق به أو تدوينه وجوداً مستقلاً،"⁴ وحقيقة الامر أن الغرابة تكمن فيما رآه العشماوي غريباً؛ إذ أنه أين الاشكال في أن تكون المعاني مستورة، أليست سابقة الألفاظ ؟

¹ ديوان علي بن الجهم، ت: خليل مردم بك، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1980، ص 143

² البيان والتبيين، الجاحظ، 1998، ج1، ص 75

³ قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1979، ص 272

⁴ قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد العشماوي، ص 272

وإذا كان الجاحظ قد جزم بإمكانية تناول للقاصي والداني للمعاني، فإنه يكون قد حصر المعاني في المدركات العامة للأشياء والأحداث التي يتفاعل فيها أفراد الجماعة البشرية، والتي تعتبر من القواسم المشتركة بينهم، والتي تنطبع في أذهانهم على شكل صور فوتوغرافية للواقع المدرك عن طريق منافذ الإدراك، ورأيه في هذا الشأن لا تشوبه شائبة؛ بل هو الواقع الذي نشترك فيه جميعا، وهذا النوع من المعاني " ما يجتذبه (المتكلم) على مثال تقدم ورسم قرط.¹ ولكن في المقابل ألا يفترض حضور الواقع أمام الانسان ليقوم بعملية مسحه وتخزينه في ذاكرته ليرجع إليه متى شاء ؟ الإجابة ببساطة نعم، ولكن هذا غير متاح للجميع، فهناك كثير من المعاني محجوبة عن كثير من الناس، سواء لعدم التقائهم بها، أو لعدم فهمهم لها، أو لتأخر ولادتها واقعيا.

والجاحظ على الرغم من تشبته بمحدودية المعاني، فإنه يطلق العنان للتشكيل اللفظي؛ بل الأكثر من ذلك يجعله عتبة يرتقي بها على من يراهم دخلاء على اللغة الأم في " أن للعرب الفضل والمزية في حسن النظم والتأليف، وأن لها في ذلك شأوا لا يبلغه الدخلاء في كلامهم والمولدون، جعل يعلل ذلك بأن يقول : لا غرو، فإن اللغة لها بالطبع ولنا بالتكلف، ولن يبلغ الدخيل في اللغات والألسنة مبلغ من نشأ عليها، وبدئ من أول خلقه لها،"² وربما هذه حالة تعصب نتجت عما ادعاه الشعوبيون من فضل لأمتهم، واتهامهم للعرب بقصورهم.

ويعلق الجرجاني على هذا، ولا أراه هو كذلك بعيدا عن عصبية، معتبرا أن مثل هكذا طرح يزيل الإعجاز لأنه وحسب رأيه أن ثبات الإعجاز مرده إلى ثبات العلوم البشرية،³ ولكن المتتبع جيدا لقول الجاحظ من أن التفوق في اللغة لا يكمن في كون العربي، إنما تحدث بصفة العموم، تحدث عن اللغة بصفة عامة وما ذكره للعربية إلا على سبيل التمثيل باعتبارها اللغة التي كان يدور الحديث عنها، لذلك أرى أننا نستطيع أن نفهم أيضا من كلامه أن العربي لا يبلغ من لغة الفرس مبلغ من نشأ عليها، وكذا لغة الروم وغيرها.

إن كل عصر له من المستجدات ما يولد معاني جديدة لم يسبق للإنسان أن تصورها أصلا، فما هذه الابتكارات التكنولوجية إلا دليل قاطع على أن المعاني تتولد في الزمن بتولد مبتكرات الإنسان وهذا النوع من المعاني ما عبر عنه أبو هلال العسكري بأنه " ضرب يتدعه صاحب الصناعة من غير أن

¹ كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 69

² دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 249

³ ينظر : دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 249

يكون له إمام يقتدى به فيه، أو رسوم قائمة في أمثاله مماثلة يعمل عليها. وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة.¹

لقد أخذ مفهوم المعنى لدى النقاد عدة مناحي وعدة توجهات باعتباره " المدخل الأساسي لفهم تصورات النقد العربي لوظائف الصورة الفنية وأهميتها. والمعنى مصطلح يستخدم في مجالات متعددة في الكتابات العربية القديمة، ولعل ذلك ما جعله مصطلحا متعدد الدلالة،"² على حد تعبير الدكتور جابر عصفور.

وربما أبرز استعمال للمعنى وأقربه للذهن " الغرض الذي يقصد إليه المتكلم، "³ من خلال عملية تفاعل الذخيرتين اللغويتين للباط والمتلقي في محاولة منها لإيجاد السبيل لتطابق القصد والفهم، " والمعنى بهذا الاستخدام، يرادف الفكرة العارية المجرد، التي يشتمل المبدع في صياغتها، ويستخلصها المتلقي من صياغة المبدع، بعد تجريدتها من حواشي الصياغة وزخارفها.⁴

وعليه فإن كلا من الباث والمتلقي عليهما أن يستعدا أثناء عملية التفاعل للدخول إلى الدائرة المشكلة من تقاطع ذخيرتهما اللغويتين والرجوع إلى الأسس الفكرية في صياغة وقولية المعاني داخل نسيج لفظي متشابك تعارفت عليه دارتهما اللغوية، وإلا فإنهما سيكونان في مستويين متباعدين، سواء كان هذا التباعد عمودي أو أفقي، فإن النتيجة الحتمية أنها لا يلتقيان أبدا، لأن " مقتضى الحال مختلف. فإن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التنكير يبين مقام التعريف ومقام الإطلاق يبين مقام التقييد ومقام التقديم يبين مقام التأخير، ومقام الذكر يبين مقام الحذف، ومقام القصر يبين مقام الخلاف، ومقام الفصل يبين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يقابل مقام الاطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يبين خطاب الغبي."⁵

إن هذه التباينات من شأنها أن تحدد تساوي الصدفين أو اختلالهما، ولا يمكن بأي حال من الاحوال أن يؤدي الخطاب مقصديته إذالم يتساو الصدقان، وإذا كانت المعاني قاسم مشترك بين المتخاطبان على حد تعبير الجاحظ، فإن تلبيس المعاني بالألفاظ هو الذي سيجعل " البلاغة صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادة المعنى عند التركيب. وكثيرا ما يسمى ذلك فصاحة أيضا. وهو مراد الشيخ عبد

¹ كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 69

² الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1992، ص 313

³ نظرية المعنى في النقد العربي، د. مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، د ط، د ت، ص 38

⁴ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، ص 313

⁵ الايضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: محمد خفاجي، المكتبة الأزهرية، القاهرة، ط 3، 1993، ج 1، ص 42



القاهر بما يكرره في دلائل الإعجاز من أن الفصاحة صفة راجعة إلى المعنى دون اللفظ، كقوله في أثناء فصل منه : علمت أن الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقها أوصاف راجعة إلى المعاني، وإلى ما يدل عليه بالألفاظ، دون الألفاظ أنفسها.¹

ويرى القزويني أن عبد القاهر الجرجاني على الرغم من أنه يعد ممن ساووا بين اللفظ والمعنى حين يستدعي قوله من دلائل الإعجاز، إلا أنه يقر في مواضع من كتابه السالف الذكر أن فضيلة الكلام للفظه، لا لمعناه،² ولكن المتنبع جيدا لما قاله عبد القاهر الجرجاني فانه يجده أنه لا يحط من شأن المعنى بقدر ما يعيد للفظ مكانته التي سلبت منه على أيدي " من قدم الشعر بمعناه، وأقل الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما قُصِّل عن المعنى".³

إن الجرجاني يريد المحافظة على أن يكون اللفظ والمعنى ككفتي ميزان لا ترجح إحداها على الأخرى، لذلك نجده بعد هذا الترجيح يعيدنا إلى فكرته الراسخة والواثق منها جيدا فيقول : " واعلم أنا وإن كنا إذا اتبعنا العرف والعادة وما يهجس في الضمير وما عليه العامة، أرانا ذلك أن الصواب معهم، وأن التعويل ينبغي أن يكون على المعنى،"⁴ لكن هذا لا يعني إقصاء الألفاظ، فإننا نجده؛ أي الجرجاني يستدعي قول الجاحظ الشهير الذي يعتبر أن " المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك،"⁵ ويؤكد ويراه على قدر كبير من الأهمية؛ بل ويزيد في تفسيره وتبيينه لتقريب المعنى المتوخى منه، حيث يعتبر " أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير فيه،"⁶ بل والأكثر من ذلك أستدل بشواهد من الواقع.

الصورة الذهنية والمنطوق بين الباث والمتلقي.

بغض النظر عن العلاقة بين المعنى واللفظ كونها علاقة تلازمية قائمة على السبب والمسبب، أو كونها علاقة اعتباطية وضعية على حد دو سوسير، فإن الجدير بالاهتمام والسعي من أجل تحصيله هو دراسة المجال الممغنط بينهما، فهما تعددت الرؤى والأفكار في إثبات هذا الرأي أو دحض الآخر فإن

¹ المصدر نفسه، ج1، ص 44 - 45

² ينظر : المصدر نفسه، ج1، ص 45

³ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 251 - 252

⁴ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 252

⁵ الحيوان، الجاحظ، ت عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، دت، ج3، ص 131 - 132

⁶ دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 254

الغاية لا تعدو كونها مجرد وجهات نظر فلسفية لا تسمن ولا تغني من جوع؛ إذ أنها لا تبعد عنها قدر أئمة في حين أنه من المفروض أن تؤخذ هذه القضية كوسيلة لتفعيلها في حل مشكلات الإنسان الكلامية.

فكل علاقة لها من الحجب ما لها، كما لها ما يدحضها، فالاعتباطية التي نادى لها سوسير ميتة قبل ولادتها عند كثير من علماء اللغة، فهنا من يرى أن الاعتباط " تعسف من حيث هو متنزل في مبدأ الاقتران ومنطلق الاتصال، وما إن يطرد اتصال الدال في اللغة بمدلوله طبقاً لتواتر الزمانية حتى يرتفع التحكم الأولي عند لحظة الاقتران الدلالي".¹

ولعل الدوامية التي أحدها هذه القضية منذ القدم وحتى يومنا هذا، كان المتسبب الرئيسي فيها هو ما جاء على لسان من تساءل يوماً قائلاً: الدجاجة أولاً أم البيضة؟ فهل عجزنا عن حل هذا اللغز حال بيننا وبين الاستنفاع بهما؟ بالطبع لا، فالدجاج لا زال يلد بيضا والبيض لا زال يلد دجاجاً، والإنسان لا زال يُطعم منها. لذلك لا بد لنا أن ننشغل بالتفاعلات بين اللفظ والمعنى أكثر من انشغالنا بمن السيد والمسود بينهما.

إن الحديث عن اللفظ والمعنى دون إدراج الفاعل لها يضيفي على الصورة نوعاً من الضبابية، فالمعنى و اللفظ كائنات افتراضية تنوب عن واقع مادي من جهة، عن مشاعر وأحاسيس من جهة أخرى، والفراغ القائم بين المعنى واللفظ منوط بالمتكلم مهمته فيها مد الجسور بينهما، لقد أفاض حازم القرطاجني في التقنين لهذه الجسور، ففي منهاجه قال: "النظم صناعة أكتها الطبع. والطبع هو استكمل للنفس في فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري"،² وحتى وإن كان الحديث عن الشعراء والأدباء، فإن الشأن نفسه بالنسبة للمتكلم العادي؛ إنما بقدر أقل رفعة في التعامل مع معادلة اللفظ - معنى.

إن الألفاظ المفردة كائنات لا تؤدي الغرض اللغوي؛ بل هي مجرد أصوات كالأصوات التي تحدثها كائنات أخرى حية كانت أو جامدة، إنما الفاعل في اللغة اتحاد هذه الألفاظ مع بعضها البعض داخل تفاعل له مرجعيات مسبقة تساهم في فك شيفرات هذا الاتحاد بين الألفاظ، وهذا يضعنا على نفس البعد بين من يدعي اعتبارية العلاقة بين الألفاظ والمعاني، وبين من يرى علاقة منطقية بينهما، لأن المعنى ليس أجزاء منشورة على الألفاظ تستجمع وتضم لتبني المعنى، إنما هي أجزاء فعلاً لكن لا تستجمع بل تتكامل فيما بينها بفعل عوامل خارجية.

¹ التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، دط، 1981، ص 169.

² منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ت: ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008، ص 177

إن من يرى أن الألفاظ لباس للمعاني يتوهم " أن المتكلم يستحضر المعنى في ذهنه - أولاً - ثم يبحث له عن لفظ يؤديه به،"¹ وربما هذا الطرح له من الأدلة ما يبرره في ذاتنا، فإننا في كثير من الاحوال نقف على مواقف أو مشاهد لكننا لا نستطيع التعبير عنها، فنستعمل تلك العبارات التي تقول : خاتي الألفاظ، أو عجز اللسان عن التعبير، " لأن المعنى هو عماد اللفظ، واللفظ هو زينة المعنى. والمعاني بمنزلة الأرواح، والألفاظ بمنزلة الأجساد."²

إن هذا الامر طبيعي وبديهي كما ذكرنا سابقا، ولكن ربما ليس لدرجة انتفاء اللفظ على بعض المعاني انتفاء كلياً، فرما يعبر عنها بعبارات غير لائقة أو لا تناسب المقام، أو " لا يقدرّون على إبرازها في لباس أنيق مناسب لها، لعدم الطبع الحبيب إلى ذلك،"³ وقد ورد عن المبرد وهو الجامع لعلوم اللغة وقطب من أقطابها أنه قال " ولربما احتجت إلى اعتذار من قلة إلى بعض الأصدقاء، أو التماس الحاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بما أرتضيه."⁴

إن مقولة المبرد تؤكد أسبقية المعنى عن اللفظ، ولكنها لا تجزم بأن بعض المعاني لا ألفاظ لها، لأن لا يتوهم أن المعاني تنبئ بعيدا عن الألفاظ، فقوله بالألفاظ مرضية بينت أنه " كان يستحضر المعنى في خاطره بعبارات غير مرضية، ولكنها تحتمل - أيضا - أن يكون قد عبر فعلا بالألفاظ لم يرضها،"⁵ وهذه الحيرى التي تنتاب المبرد أفاظ الجرجاني فيها وبين " أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جملة معلومة وعلة معقولة."⁶

إن نفي هذه القضية أو إثباتها تحدث نوعا من الضبابية على المعنى ذاته، حيث أن التأرجح بين الرأيين جد منطقي لما لكل فريق من دليل، وبات تفضيل رأي على رأي ضرب من الخيال، الامر الذي يحلينا على قضية مهمة تخص المعنى ذاته باعتباره متأرجحا بين المنطقة السوداء والمنطقة البيضاء ليستقر المقام به في المنطقة الرمادية، وعليه " إن المعنى يكون في النفس على درجات : يكون خيالا جائلا،

¹ قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي، د. علي محمد حسن العجاري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1999،

ص 20

² الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ضياء الدين بن الأثير الجزري، ت: د. مصطفى جواد و د. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي، العراق، د ط، 1956، ص 21

³ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ضياء الدين بن الأثير الجزري، ص 22

⁴ المصدر نفسه، ص 22

⁵ قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي، د. علي محمد حسن العجاري، ص 22

⁶ دلائل الإحجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 41

ويكون فكراً متميزاً، وأنه في الحالة الأولى قد يكون معنى مجرداً من اللفظ، وأما في الحالة الثانية فلا يتصور تجرده. أما إذا جاوز النفس فهو ولفظه شيء واحد.¹

إن مثل هكذا طرح يجعلنا نعيد النظر أصلاً في مسألة التفضيل بين اللفظ والمعنى، لأن المصطلحين وفق هذا الطرح السالف الذكر؛ غنما هما مراحل من مراحل تصور الكلام، ومراحل من مراحل تشكل قنوات الاتصال بين الباث والمتلقي، ومراحل من مراحل عملية التواصل أصلاً، "وليس لقاتل هنا أن يقول : لا لفظ إلا بمعنى، فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى، فإني لم أفصل بينهما، وإنما خصصت اللفظ بصفة هي له، والمعنى بمجيء فيه ضمناً"،² على حد تعبير ابن الأثير.

واسقاط هذه الكائنات الافتراضية الكامنة في النفس على الواقع المسموع، تحتاج إلى عملية بناء مادي تتحد فيه عدة مستويات لغوية، ويتكامل فيه فتات المعنى المنشور على هذه المستويات، بحيث يكون فارق قيمي بين الكل المجمع والأجزاء المنفصلة، وهذا ما يؤكد أن "الكلمة هي مجموعة من الوحدات الصوتية المؤلفة بطريقة معينة لكي ترمز للأشياء الحسية والأفكار المجردة"،³ وهذا في الحقيقة خلاصة كثير من علماء اللغة المحدثين الذين انحصرت عندهم ماهية الكلمة بشكل ملفت للانتباه في جانبها الصوتي.

والتمكن من قوانين الكلام يخول للمتكلم "صوغ الكلام بحسبه عملاً"،⁴ ولا يكون هذا التمكن حسب القرطاجني إلا من خلال "قوى فكرية واهتداءات خاطرية"،⁵ جمعها عالماً الجليل في عدة نقاط، أهمها : القوة على التشبيه، القوة على تصور مقاصد الكلام ومعانيه، القوة على تصور كلية الخطاب، القوة على التخيل، القوة على ملاحظة تناسب المعاني، القوة على الاهتداء إلى العبارات الحسنة، القوة على الالتفات من حيز إلى حيز، وغيرها.⁶

إن اللفظ بديل عن المعنى وهو يحتاج إلى ميكانيزمات وآليات تبدأ من رصد الواقع أو ما يسمى في اللسانيات بالمرجع عن طريق منافذ الإدراك لتتشكل الصورة الذهنية للواقع، فهو اسقاط الواقع

¹ قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي، د. علي محمد حسن العجاري، ص 24

² المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، ت: محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى باي الحلبي، القاهرة، دط،

1939، ج 1، ص 27

³ بلاغة الكلمة والجملة والجل، د. منير سلطان، منشأة المعارف بالاسكندرية، مصر، دط، 1977، ص 27

⁴ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تونس، ص 177

⁵ المصدر نفسه، ص 177

⁶ ينظر : المصدر نفسه، ص 177

على ذهن، ثم تستنسخ الصورة الصوتية من الصورة الذهنية، ثم ارسال الصورة الصوتية إلى ذهن المتلقي، ثم إعادة استنساخ الصورة الذهنية من الصورة الصوتية، ثم الرجوع إلى الواقع.

ولابد لنا قبل خوض مضمار اللفظ والمعنى أن نحدد البيئات التي تتكاثر فيها اللغة، فالشاعر والأديب ليس كالإنسان العادي، فالحرم على هذا الأخير حلال على من سبقه، ولسنا في هذا المقام بصدد إحاض هذا أو تأكيده، فهذه مسألة لها مجالها الخاص، لذلك سنسلم بها، خاصة وأنها آتية من بعيد، فالأدباء والمبدعون عند نقادنا القدماء " أمراء الكلام يصرفونه أنى شاءوا ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ وتعليقه ومد المقصور وقصر الممدود والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته، واستخراج ما كُلت الألسن عن وصفه ونعته والأذهان عن فهمه وإيضاحه، فيقربون البعيد ويبعدون القريب ويحتج بهم ولا يحتج عليهم ويصورون الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل".¹

إن الكلام المنطوق هو عملية بناء تمر بعدة مراحل لتتشكل، فهي عملية تفاعلية بين الأشياء والأغراض والدوافع، وهي عملية خلق تمر بأطوار مختلفة، فالكلمة التي تتلفظ بها هكذا جزافاً، لو تتبعنا مراحل انشائها والطاقة التي بددناها من أجلها، والجهد الذي بذلناه لوضعنا على أفواه أبقالها. إن هذا التشكل بين اللفظ ومعناه يفرض علاقة تلازمية، وقد أكد هذا الرأي ابن سينا، فقد قال : " ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم. فكلما أوردته الحس على النفس التفتت إلى معناه".²

إن الأصم بالضرورة يكون أبكماً، والعكس ليس صحيحاً، لأن جهاز المدخلات عاطل، فلا يمكنه إعادة إنتاج ما لم يسمعه وإلا فإنه سينطق بما لا يعقل كما قال تعالى: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْفَعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً، صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ.³ فالإنسان يحور الأشياء لا يتكلمها، فكل ما تجود به قريحة الإنسان إنما هي تماثلات لأشياء استقاها من العالم الخارجي، قال تعالى : وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.⁴

إن عملية التكلم تستدعي عملية التوفيق بين الكلام الداخلي الذي تختلج به النفس، وما يقابله من كلام منطوق مسموع اعتاد عليه كل من المتلقي والباحث، وإن أي خلل بينها يؤدي بالضرورة إلى

¹ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد بن الحوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1981، ص 143-144.

² اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، د.الأخضر جمعي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2001، ص 19

³ سورة البقرة : 171

⁴ سورة النحل : 78

إحداث فهم عند المتلقي غير ذلك الذي قصده، وربما يكون المتلقي على درجة من الذكاء فيوظف آليات خارجية للتحليل اللغوي كالسياق مثلا ويهدي لما أراد قوله المتكلم، لكننا الآن نتحدث من جانب لساني بنيوي محض نغيب فيه المرجعيات او الآليات الخارجية.

إن عملية التحويل النقطي للمعقولات داخل النفس البشرية أثناء عملية الكلام، تنتج عنه في الفضاء صورة منطوقة مماثلة، تستوجب على المتلقي البرهنة عليها بالتراجع للوصول إلى نفس تلك الصور المعقولة، لأن " تركيب الألفاظ شبيهاً بتركيب المعاني المركبة التي تدل عليها تلك الألفاظ المركبة، وتجعل في الألفاظ المركبة أشياء ترتبط بها الألفاظ بعضها إلى بعض متى كانت الألفاظ دالة على معاني مركبة ترتبط بعضها ببعض. ويتحرى أن يجعل ترتيب الألفاظ مساوياً لترتيب المعاني في النفس."¹

إن هذا التماثل بين مركبات الخطاب بين الباث والمتلقي في الكلام ذاته، يساهم في عملية التواصل بين طرفي الخطاب من دون اللجوء إلى الاطار الخارجي للغة، فالمهمة تصعب في بدايتها ثم ما تلبث أن تتحول إلى عملية نمذجة، مثلها مثل أي منتج مادي، ففي بداية الامر تتوحد جهود العلماء والخبراء لصياغة شكل المنتج وطبيعته ودراسة إمكانية فشله أو نجاحه، ثم ما إن يلبث هذا المنتج نموذجاً تستنسخ منه الملايين دون اللجوء لمنظري فكرته. فلولا مطابقة الألفاظ المنطوقة للمعاني الكامنة في ذهن المتكلم لما تمكنا من التواصل أصلاً.²

إن مفاضلة الجاحظ للألفاظ على المعاني جاء من رؤية عميقة حول حقيقة وجود كلا منهما؛ أي اللفظ و المعنى، فقد جاء في البيان والتبيين أنه " لا يكون اللفظ اسماً إلا وهو مضمن بمعنى، وقد يكون المعنى ولا اسم له،"³ فهو يرى أن كثرة المعاني دون الاستدلال عليها بالألفاظ نقص من قيمتها، وكأنه استحضّر قول الشاعر : بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاة نذور، ولكن بالمقابل يمكن اتخاذ هذا الرأي في الرفع من قيمة المعاني، فقصور الألفاظ عن تغطية جميع المعاني يمكننا اعتباره ضعف ونقص. ولكن بالمقابل يمكن اتخاذ هذا الرأي دليلاً على الرفع من قيمة المعاني، فقصور الألفاظ عن تغطية جميع المعاني يمكن اعتباره أيضاً ضعفاً ونقصاً.

وقد أفرد ابن سنان الحفاجي في سر الفصاحة، مقالا في هذا، لا نراه إلا اتبع طريق صاحبه، هذا المقال أساء الرد على من ذهب إلى أن الكلام معنى في النفس من المجبرة، واستند فيه على حجج

¹ كتاب الحروف، الفراهي، ت: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، د ط، 1970، ص 140 – 141

² ينظر : نهاية الإقدام في علم الكلام، ت: الفرد جيوم، مكتبة المثنى، بغداد، د ط، د ت، ص 286

³ البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ط، 1961، ج 1، ص 89 - 90

عقلية أكد فيها أنه لو كان الأمر كذلك "كان معنى زائداً على المعاني المعقولة الموجودة في القلب كالعلم وغيره، لوجب أن يكون إلى معرفته طريق من ضرورة أو دليل، ولو كان ضرورة لوجب اشتراك العقلاء في المعرفة به، ولم يحسن الخلاف بينهم فيه، والمعلوم غير ذلك، ولو كان عليه دليل لكان من ناحية حكم يظهر له، ويتوصل به إلى إثباته، كما يتوصل بأحكام الذوات إلى إثباتها".¹

ولم يكنف بهذا؛ بل افترض بعض الحجج التي تثبت ما نفاه في هذا المقال ورد عليها، فقد قال "إن قيل : الصوت المسموع طريق إلى إثبات الكلام القائم في النفس، قلنا : ليس يخلو من أن يكون طريقاً إليه بأن يعلم عنده أو يستدل به عليه، فإن كان الأول وجب أن يعلم كل من سمع الكلام الذي هو الصوت الواقع على بعض الوجوه شيئاً آخر عنده، ومعلوم خلاف ذلك، وإن كان يستدل به عليه، فالكلام المسموع إنما يدل على ما لولاه لما حدث — وهو القدرة — أو ما لولاه لم يقع على بعض الوجوه — وهو العلم والإرادة — فأما ما سوى ذلك فلا دلالة عليه لنفي التعلق".²

وما يمكن الوقوف عليه كحوصلة لهذا البحث هو أن النص له بنيتان، بنية ثابتة افتراضية تُقرأ من الدلالات المعجمية للألفاظ ومن دلالات التراكيب والأساليب اللغوية المعيارية، وبنية تتحرك فيها هذه المركبات حسب خبرات المتلقي ومدى تفاعله مع النص داخل سياقات محددة تفرضها جملة من المعطيات الاجتماعية والثقافية والايديولوجية، فالبنية الأولى جامدة يصعب معها التواصل، والبنية الثانية انسيابية تسهل معها العملية التواصلية.

المصادر والمراجع :

الايضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت : محمد خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط3، 1993،

بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، عالم المعرفة 164، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1978،
بلاغة الكلمة والجملة والجميل، د. منير سلطان، منشأة المعارف بالاسكندرية، مصر، د ط، 1977،
البيان والتبيين، الجاحظ، ت : عبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د ط، 1961،

التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، د ط، 1981،

¹ سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982، ص 40 - 41

² المصدر نفسه، ص 41

الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ابن الأثير الجزري، ت مصطفى جواد، المجمع العلمي، العراق، دط، 1956

الحيوان، الجاحظ، ت عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، دت، ديوان علي بن الجهم، ت : خليل مردم بك، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1980، سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1982، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992

في علم النص والقراءة، د. عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2011، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد العشراوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1979، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي، د. علي العمري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1999

كتاب أرسطوطاليس في الشعر، ت شكري محمد عياد، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1، 1967، كتاب الحروف، الفرائي، ت: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، د ط، 1970، كتاب الصنائع، أبو هلال العسكري، ت : علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1952

كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، محي الدين بن العربي، دط، دت، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، د. الأخضر جمعي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2001،

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ت : محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، دط، 1939،

منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ت : ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008،

نظرية المعنى في النقد العربي، د. مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت، د ط، دت، نهاية الإقدام في علم الكلام، ت: الفرد جيوم، مكتبة المثني، بغداد، د ط، دت،